دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	فقه الإصلاح والتدين من خلال المدرسة المغربية في القرن 11 هـ: الحسن اليوسي نموذجاً
المصدر:	مجلة البحثية للعلوم الإنسانية والإجتماعية
الناشر:	مؤسسة خالد الحسن - مركز الدراسات والأبحاث
المؤلف الرئيسي:	تكني، عبدالعزيز
المجلد/العدد:	ع11
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الشهر:	صيف
الصفحات:	135 - 145
رقم MD:	1045757
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, EduSearch
مواضيع:	الحسن اليوسي، ابن مسعود بن محمد، ت. 1102 هـ.، التراجم، الفقه الإسلامي، العقائد الإسلامية، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1045757

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

فقه الإصلاح والتدين من خلال المدرسة المغربية في القرن 11هـ
"الحسن اليوسي نموذجا"

عبد العزيز تكني[1]

tougniabdelaziz@yahoo.com

تقديم الحمد لله﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾[2] واعتمده محور التغيير، ومحله وأناط عملية الإصلاح والتغيير والتجديد بإرادته واختياره، والشهادة على الناس والقيادة لهم إلى الخير بما يمتلك من مدركات جماعية، ومن خلال إيمانه بالوحي الخالد الذي تعهد الله بحفظه، والذي يشكل أساس النهوض ويمنح الإمكان الشهود الحضاري، فيستطيع من خلاله ،تقويم الماضي وتغيير الحاضر وحسن بناء المستقبل، وهذا لا يتنافى مع قدر الله وإرادته، وإنما هو من قدر الله تعالى وإرادته، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الرسول القدوة خاتم النبئين وعلى أله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد: فإنّ فقه الإصلاح والتدين يعد من الحقول الفكرية التجديدية التي برز فيها علماؤنا الأعلام وتفتق فيه نظرهم الفذ.. وقد عرف عن علماء المدرسة المغربية الفحول شدة اعتنائهم بهذا الحقل، فكان لهم حظ وافر ونصيب بارز في تعميق النظر فيها تجديدا وإحياء، وقراءة ونقدا، وصيانة وحفظا، وهذا مما برز فيه فقيه المغرب الكبير الإمام أبي علي اليوسي رحمه الله على أقرانه. فمن خلال تآلفيه ورسائله ونوازله واجتهاداته وأفكاره الإصلاحية، ندرك "الميزة الكبرى للإمام اليوسي في ترك التعصب المجانف للعلم والعلماء لرأي بعينه أو لإمام مهما بلغت إمامته"[3].

إن الحديث عن فقه التدين عند أبي علي اليوسي من خلال مشروعه الفكري الإصلاحي التجديدي، ليس بالسهل اليسير، وذلك لعلو كعبه وعبقريته ومشاركته في شتى العلوم، ولمكانته وتميزه بين أقرانه، فهو "عالم المغرب ونادرته وصاعقته في سعة الملكة وفصاحة القلم واللسان مع الزعامة والإقدام والصدع بما يتراءى له وكثرة التصنيف على طريق بعد العهد بمثله، وهو الكلام المرسل الخالي عن النقل إلا ما لابد منه"[4]. فكان رحمه الله قامة علمية نفيسة وأيقونة فقهية مالكية متفردة، وشخصية منظرة مؤصلة محققة، أعجوبة الدهر ونادرة العصر المعروف باجتهاداته، وتجديده للمدركات الجماعية للأمة المغربية، كنسق قيمي ورؤية معرفية فاعلة، على مستوى التمثل المعنوي والتمثل الواقعي، منهجا وسلوكا" ومن معاصريه من رأى فيه "المجدد على رأس هذه المائة، لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه"[5]، ولذلك قال الإمام أبو سالم العياشي: من فاته الحسن البصري يصحبه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه.

وقد استجاب الله دعوة شخيه محمد بن ناصر الدرعي رحمه الله فيه لما دعا قائلا "اللهم اجعله عينا يستقي منها أهل المشرق وأهل المغرب"[6]؛ فكان بحق حلقة وصل وواسطة عقد عظيمة بين سلفه وخلفه، كما أنه أعطي فكرا تركيبيا، وقريحة وذكاء، جعله ينفذ إلى عمق ما يدرس من المسائل المطروحة، ويجعلها مطية لذكائه وفطنته وعمله ويستوعب استيعاب الفاحص الناقد المتمكن. ببعد أخلاقي عرفاني مقاصدي يقول عن نفسه رحمه الله في فهرسته "وكانت قراءتي كلها فتحا ربانيا، ورزقت ولله الحمد قريحة وقادة، وفطنة ذكية"[7].

لقد عاصر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي (1040هـ-1102هـ) فترة عصيبة وحاسمة من تاريخ المغرب، ولحظات رهيبة وأحداث اجتماعية خطيرة وانحرافات سلوكية على مستوى المدركات الجماعية للأمة، حيث الفوضى والفتنة والاضطهاد والخراب والضعف.. والتطاحن والتصارع على الرئاسة من قبل القوى المختلفة المتواجهة في الميدان، "ويمكن أن نحصر حياة الإمام اليوسي بصفة عامة في ثلاث فترات: الصبا والتكوين والتنقل لطلب العلم حتى أعوام الستين؛ الاستقرار بالزاوية الدلائية من أعوام الستين حتى تخريبها سنة 1079هـ؛ ما بعد الزاوية الدلائية من 1079هـ إلى 1102هـ سنة وفاته[8]. ولعلها أهم فترة لفهم المدركات الجماعية التي حملها المشروع الفكري للرجل، وبلورت شخصيته في بعدها الأخلاقي الإنساني المشترك، تمثلا معنويا وتنزيلا واقعيا، لأنها عرفت شدة الاضطراب من حياته.

كل هذا وغيره جعله محل أنظار وثقة، فلا تكاد تخلو تآليفه في الفقه المالكي، من ذكر نوازله وفتاواه وأجوبته السديدة، وشروحاته واختياراته الاجتهادية الفريدة، البعيدة كل البعد عن منهج التقليد والجمود، فظهر نجمه وعلا قدره في علم

الشريعة والحقيقة تأصيلا وتصحيحا، واجتهادا وتجديدا؛ وفي علم التوحيد والكلام تحريرا وتحقيقا وتنظيرا وشرحا وتأليفا وترجيحا؛ وفي إصلاح الشؤون العامة، وأحوال المجتمع وتدينه توجيها وإرشادا ونصحا، داعيا إلى الجمع بين المنقول والمعقول، وبين التفقه والتكلم والتصوف عالما عاملا وفق منهج أخلاقي وأصول أهل السنة المعتبرة، مُشفِعا ذلك بالأدلة والأمثلة في نسق بديع لا يختلف مع الواقع الذي عاشه، من غير تكلف ولا تكلس ولا تحجير، حتى نعته البعض "غزالي عصره". يقول في رسالة له إلى أهل بلد كارت: "عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب"[9].

وعلى الرغم من المعاناة القاسية والعداء والاضطهاد فقد استطاع الفقيه اليوسي خلال مدة أن يفرض نفسه ويبرهن بالملموس على تضلعه في العلوم النقلية والعقلية، فأسس منهجا اجتهاديا تجديديا أخلاقيا رصينا ومدرسة فكرية فريدة أصيلة توسع فيها وبرز وتصرف واجتهد، وأصبح أستاذا فيها حتى قال فيه صاحب نشر المثاني ..."وكان صاحب الترجمة آية في المعقول والمنقول، واليه المرجع فيهما، وآية في النبل والإدراك."[10] وقد تخرج منها جيل من العلماء الكبار أخلصوا له الحب والتقدير جاءوا من بعده أمثال : العلامة الحسن بن رحال المعداني ومحمد بن زاكور ومحمد بن عبد السلام البناني؛ وغيرهم من الذين نقلوا أقواله واعتمدوا آراءه وصولا إلى زماننا هذا.

ومن جملة المؤلفات التي ألفها رحمه الله والتي لا تخلو من فوائد جمة وآراء اجتهادية، تعتبر من صميم البحث قد حقق بعضها الباحثون، ومنها ما يحتاج إلى تحقيق، وهذه بعض منها نذكرها هنا استئناسا وليس من باب الحصر. ففي التفسير له: *فتح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب*. وفي التوحيد له: *حاشية على شرح كبرى السنوسي .وشرحه للصغرى؛ رسائل في التوحيد*. وفي الفقه، لازالت جل مؤلفاته الفقهية مخطوطة في الخزانات العامة والخاصة وقد وقفت على أغلبها في انتظار تحقيقها مستقبلا من لدن الباحثين ومن أبرزها: *رسائل وفتاوى؛ نوازل سيدي الحسن اليوسي؛ شرح على شرح خليل؛ منظومة فقهية على نسق متن ابن عاشر؛ أجوبة فقهية متفرقة؛ بحث فيما يجب على المكلف من أصول الدين وفروعه*. أما في أصول الفقه فله:*الكوكب الساطع بشرح جمع الجوامع لتاج الدين السبكي*. كما ألّف في الآداب واللغة وقواعدها، وله فيها: *المحاضرات؛ زهر الاكم في الأمثال والحكم*. *وله أيضاً* ديوان شعر. وله في التصوف: *شرح عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث عبد القادر الجيلاني*. وفي ا لمنطق ألّف: *نفائس الدرر على شرح المختصر للسنوسي*. أما رسائل اليوسي، فقد تضمنت أربعة موضوعات كبرى: الشؤون العامة وأحوال المجتمع؛ التصوف؛ التوحيد؛الفقه.

وتروم هذه الورقة البحثية أن تسهم بمشيئته تعالى في إلقاء الضوء على مساهمات الإمام اليوسي في تجديد وإصلاح المدركات الجماعية للمجتمع المغربي؟ وما هي أبرز معالم فقه التدين في المشروع الفكري الإصلاحي اليوسي؟ وإلى أي حد كان موفقا في الجمع بين التمثل المعنوي للقيم الفكرية والتنزيل الواقعي للقيم السلوكية؟

1/معالم فقه التدين من خلال المشروع الفكري اليوسي

1.1/معالم فقه التدين من خلال الدرس العقدي اليوسي: الحديث عن شخصية الإمام أبو علي اليوسي (ت1102هـ/ 1691م) وسنيته التي تنم عنها القضايا العقدية التي تناولها في كتبه ورسائله التوحيدية، وأقواله وتوجيهاته، ومنهجه في محاربة الانحرافات الدينية، التي عج بها القرن الحادي عشر الهجري، هو حديث عن منهج أصولي مقاصدي عرفاني ذي بعد أخلاقي مضبوط يرتقي إلى مستوى الاجتهاد والانتقاد والرد والقبول، وإتباع السنة باعتبارها السبيل الأقوم، وباعتبار صاحبها عليه السلام وخلفائه من بعده خير من يقتدى بهم.. فالإمام اليوسي لا ينفك يسأل المولى تعالى"أن يجمعنا على السنة والاستقامة..وإتباع سنته قولا وفعلا واعتقادا، وذلك هو سبب الفلاح والنجاة لا غير"[11].

ولما كان التقليد الأعمى للمذهب والجمود عليه، وعدم استعمال الرأي، والانحرافات الدينية والبدع والزيغ والأهواء والضلالات، هي خاصيات عرف بها عصر اليوسي ومعاصروه فإن مدركاته الفكرية أبت إلا نبذ ذلك. وهو ما تبينه رسائل

الإمام ومؤلفاته المتعلقة بمسائل العقيدة والتوحيد، ومنها: حدوث العالم وقدمه؛ جواز الكفر على الأنبياء؛ الحديث في القرآن والنبوة. وقد ناقش فيها الفرق الكلامية من أهل السنة، والدهريين والفلاسفة، وعالجها من وجهة نظر أهل السنة بنفس مقاصدي، وأضفى عليها من سعة أفقه وعمق تفكيره، وتبحره في علم المنطق الشئ الكثير، متحررا من قيود التقليد التي كانت فاشية في عصره. وحرص على تحصيل الإيمان والمعرفة عن طريق التحليل والتعليل عاملا على الجد في ذلك. ففي مسألة حدوث العالم أو قدمه وما تستلزمه من إبطال التسلسل أو اثباته، تعرض لأقوال مختلف الفرق- معتقدا في جداله بطبيعة الحال برأي أهل السنة- لكنه في ذلك يصحح ويعدل ويقبل ويرفض، ويقارن ويناقش أدلتهم وحججهم بمنهجية علمية رائعة[12]. ومن جملة توجهاته وتنبيهاته الأصولية الكثيرة تنبيهه على الشجرة الخضراء التي اشتهرت بسجلماسة وكثر تعلق الناس بها إلى حد أمر بعض الفقهاء بقطعها. يقول:"فليعلم الناظر أنها إنما هي شجرة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع،ومثلها أحق أن يقطع"[13].

وفي رسالة له حول مسألة ذات الله تعالى هل هي حسية أو معنوية، بسط القول فيها وحرره تحريرا في قياس بديع بين اعتقاد النصارى في ذات الله تعالى وصفاته حيث قالوا بان الله تعالى صفة قديمة، وأنه مركب من أقانيم ثلاثة هي: العلم والحياة والوجود، فاتحدت فصارت إله واحدا فجمعوا بين الوحدة والكثرة، فقال بشأن ذلك:

> فكل من ذهب إلى أن ذات الله تعالى معنى من المعاني، فمذهبه كمذهب النصارى [...] وأما من قال إنها حسية فيقال له: إن ذات الله موجودة وهو قائم بنفسه ويترك لفظ الحسية وان صح معناها، كما يترك لفظ المعنوية لعدم صحتها هي معنى.

والعلم عند الإمام اليوسي رحمه الله مقرون بالعمل- في مزج بديع بين القيم الفكرية و القيم السلوكية- يبدأ عنده من عبادة الله "وهي مجموعة من علم وعمل، والعلم علمان: علم بالمعبود، وعلم بما به يعبد. فهذه ثلاثة أقسام الأول وهو العلم بالمعبود فهو التوحيد، وهو معرفة الله تعالى، فان الله تعالى هو المعبود، ولا معبود بالحق سواه تعالى...وأما القسم الثاني وهو العلم بما يعبد الله تعالى به، فهو معرفة أحكام الفقه...وأما القسم الثالث هو العمل، فهو الامتثال بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، والدوام على ذلك حتى يأتيه اليقين[14].

فهو رحمه الله يرى أنه لا علم بدون عمل، والعمل يتبلور في تصوره من خلال سلوك معين وآداب مضبوطة تشكل عنده حدود التزام يدعو إليه، وهو ما عبر عنه بالإخلاص؛ فالناس عنده[15]:

> كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون قليل، أي فهم قليل من قليل." وقد بين ملامح هذا الإخلاص في كتابه *القانون* حيث ذكر منها "تقوى الله تعالى ودوام خوفه ومراقبته في جميع حركاته وفي سره وعلانيته، وليستشعر ما أودعه الله تعالى من أمانة فيجتهد في حفظها ويحذر من الخيانة فيها[...] ويستتبع ذلك الورع والوقار والخشوع والخضوع والسكينة وحسن السمت [...] ومنها أن يصونه كما صانه أهله ويحفظ عليه ديباجته وشرفه، فلا يمتهنه بذهابه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، [و] أن يتنزه عن دني الأفعال والأحوال طبعا وشرعا فلا يشتغل بحرفة رذيلة ولا أمر منكر ولا خارج عن المرؤة ولاموهم لذلك [و] أن يأخذ نفسه بالمحافظة على الديانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة مع الصبر على ما يتحمل من النصب والأذى في ذلك، [و] أن لا يستنكف عن أخذ العلم عن كل من لقي ولو دونه [و] أن يبث علمه للناس ويودعه صدور الرجال، فبذلك تنبت شجرة العلم وتتصل مادته، وذلك بالتدريس والتلقين والإفتاء والتصنيف.

وإن الإمام اليوسي رحمه الله يلزم بهذا النوع من الانضباط لدى المسلمين، فلأنه يريدهم أن يكونوا في موقفهم الطبيعي الذي يخولهم مكانة يقتربون بها من الأنبياء، ويتفوقون على ذوي الأمر الحكام، كل هذا وغيره جعله محل أنظار وثقة الجميع، فلا تكاد تخلو تأليفه له في أصول الدين من ذكر تحريرات عقدية عرفانية تأصيلية رصينة، وتنظيرات وتحقيقات بديعة، بعيدة كل البعد عن منهج التقليد والجمود.

وخلاصة القول في معالم فقه التدين في الدرس العقدي لدى الإمام اليوسي أنه وجد واقعه وجده يعج بالزيغ والأهواء والبدع والضلالات فواجهه بالتوجيه والتصحيح والنقد. وعندما لا يحديه ذلك فتيلاً كان يلجأ تارةً إلى الرفض العملي مما أفضى به إلى التشريد في آخر حياته، وأخرى إلى الرفض بالكلمة وكأنه يستهزئ بهؤلاء الذين يحيط بهم الفساد من كل جانب فلا يضايقهم ولا يتخذون منه موقفا معينا، ولا يريدون أن يعيشوا لقضية من القضايا في حياتهم: فهؤلاء الذين لا ينتمون إلى قضايا مجتمعهم، ولا يحفظون مدركاته الجماعية، ويتنكرون لحضارته وهويته، يرى فيهم الإمام اليوسي رحمه الله، فقدانا

للحس كالمجانين، أو ضعفه كالأطفال، وهؤلاء يسلم باطنهم من كل صراع.. أما الذين ينتصرون لقضية معينة، فإنهم مقضي عليهم بعذاب الباطن؛ ولا ينسي اليوسي هؤلاء المنتمين إلى شئ غير صحيح، ولا يقوم على أساس، ويتوهمون فيه الملاءمة، ويكرهون الملائم ويتوهمون أنه منافر، بتدخل عوامل من العوامل: وهؤلاء هم المنتمون المزيفون "وكل مجتمع يعيش مرحلة تحول سياسي واجتماعي مثل عصر اليوسي، فانه سيعرف هذه النماذج الثلاثة: الذين يعملون من أجل مثلهم فيتعذبون، وهؤلاء الراضون بالسلامة، وهؤلاء المنخرطون في صراع منحرف عن طبيعة الأمور"[16].

1- 2/ معالم فقه التدين عند الإمام اليوسي من خلال اجتهاده الفقهي و تصوفه السني: لم يكن منهج اليوسي في تصوفه السني واجتهاده الفقهي مجرد ترف فكري، بل هو منهج له أبعاد مقاصدية مضبوطة ترتقي إلى مستوى الاجتهاد والانتقاد والرد والقبول، فقد درس الفقه والتصوف دراسة متينة تلقيا وعطاء، وتأليفا وتدريسا، وتأثراً وتأثيرا، كنموذج من أحسن وأكمل نماذج الفكر المغربي في عصره. وهذا يظهر جليا من خلال استقراء مؤلفاته عامة، وفتاويه ونوازله ورسائله الصوفية، وشروحاته ومنظومته الفقهية خاصة. ولما كان التقليد الأعمى للمذهب والجمود عليه، وعدم استعمال الرأي، هي خاصيات عرف بها عصر اليوسي ومعاصروه فان فكره أبى إلا نبذ ذلك. وليس معنى الرأي هنا إتباع الهوى، وإنما معناه الترجيح القائم على العلم، ومعناه أيضا ظهور شخصية الباحث في المسائل والقضايا التي يتناولها، ظهورا يرتفع به غمار المقلدين إلى علياء المجددين المجتهدين. فالاستقلال في الرأي سمة وأصالة، وقد يبدو هناك تعارض بين ما في معنى الاستقلال من انفصال وما في معنى الأصالة من ارتباط، لكن عند التحقيق يظهر أنهما متكاملان: فالاستقلال بدون أصالة شذوذ والأصالة بدون استقلال جمود.والشخصية الجامعة بين الأصالة والتجديد عزيزة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله. ولقد كان اليوسي رحمه الله حريصا على التمسك بالسنة في تصوفه وسلوكه، ومن المجددين المجتهدين الذين تظهر أصالتهم واستقلالهم في الرأي في جل أبحاثهم وأثارهم.

وعلى الرغم من وضوح اليوسي وموقفه بما لا يدع مجالا للشك في تصوفه وتفقهه، فانه تعرض لبعض الطعن من لدن بعض الكتاب الذين لم يتصوروا إمكان توفيقه بين السنية والتصوف، في خلط عندهم بين التصوف السني التعبدي القائم على الاقتداء بالرسول عليه السلام والعمل بما يرضي الله تعالى ويقرب إليه بعلم ومعرفة، وبين طرقية الجهال المشعوذين. والسبب أن الخيط بينهما رفيع دقيق لا يدركه من لم يقف على حقيقة التصوف[17]. غير أن الإمام اليوسي لم يضق بهذا الطعن ورد على متهميه، مدافعا عن نفسه بموضوعية، وأخلاق عالية مبينا المعنى الحقيقي للعقيدة والسلوك، متواضعا قابلا للمراجعة والمؤاخذة. ولا يفوته في مرة أن يذكر بأن ما جاء به هو ما حضره في الوقت "بلا كبير روية..ولا مراجعة المظان، لخلو اليد في الوقت من الكتب،فمن طالع من السادات بعد، فأصاب علما آخر موافقا أو مخالفا فليضفه إلى ما سطر إفادة ونصحا، فان الدين النصيحة، المومن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[18].

ونظرا من جهة، لما للفقه والتصوف من أهمية قصوى في بناء العمران الحضاري الإنساني لحياة الأمة بشكل عام، وكل ما يتعلق بحياة المسلم الدنيوية والأخروية بشكل خاص، وإذا عرفنا من جهة أخرى أن أحكام الشريعة الأصلية، وخاصة القرآنية منها غير قابلة للتطور ولا للتطوير، وأن من مميزات الفقه الإسلامي مسايرته للظروف والأزمنة والإجابة على الإشكالات المستعصية والمستجدات المعاصرة التي تواجهها الأمة اليوم، أي قبوله للتغيير بحسب ما يظهر لديه[19]:

> باب الاجتهاد التي فتحها الشارع للقادرين عليها من كل المسلمين في كل عصر، وفي كل مكان، هي الكفيلة بمسايرة الشريعة وسدها حاجة ما استجد من المسائل التي لا حصر لها ولا نهاية لوقوعها، والاجتهاد يرجع إلى استنباط الأحكام من أدلتها التفصيلية، إما بفهم جديد لآية من كتاب الله تعالى، أو لحديث من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، أو انتباه لعلة يرجع إليها مناط الحكم." وهذا النوع من الاجتهاد الفقهي هو خصيصة فقيه المغرب الكبير اليوسي.

فإذا "كان علم الفقه على مذهب الإمام مالك هو اختصاص المغاربة بالدرجة الأولى فان للإمام اليوسي في هذا الاختصاص مشيخة عالية مثل شيخه سيدي محمد بن ناصر الدرعي، وشيخه أبي العباس أحمد بن محمد التجمعتي، وشيخه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الهشتوكي وغيرهم، كما أن اليوسي من الذين تخرج عليهم جماعة من كبار فقهاء المغرب"[20].

وفي رسالة له رحمة الله عليه حول مسألة الأذكار عقب الصلاة تبرز شخصية الفقيه، والمجتهد المطلق، البعيد عن أشكال التعصب المذهبي والتقليد والجمود. وهو عندما يبسط القول في المسألة تجده متمكنا متخلقا رواية ودراية بالموضوع يحلل ويقارن بين أراء المذاهب ويختار القول الأنسب والراجح مبديا رأيه فيه. يقول رحمه الله[21]:

أما الأذكار المذكورة بعد الصلاة فلم يرد فيها فيما رأينا ترتيب ولا اشتراط اتصال بالسلام، وإنما المقصود كونها بعد الصلاة...وأما التهليل فإنما ورد فيه: لا اله الله محمد رسول الله ولم يرد فيه سيدنا ولكن من أراد أن يزيده تعظيما فلا بأس عليه إن شاء الله. ثم هذا التهليل لم يرد عقب شئ من الصلوات فيما رأينا فمن شاء أن يقوله في نفسه فليقله، وأما قوله بالاجتماع فعلى الخلاف الذي قلنا. وقاعدة الإمام مالك فيه الكراهة، وكذا في نظائره من كل ما لم يرد بعينه شرعا. وقاعدة الشافعي الجواز...وليقف بباب الله تعالى ويكثر الصلاة على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، فانه الوسيلة العظمى في الدنيا والآخرة والله المستعان.

أضف إلى ذلك أن أجوبته في الموضوع الفقهي الواحد تختلف حسب ظروف وملابسات كل حالة على حدة، وهو يعطي لذلك أهمية بالغة. فهي ليست فتاوى جافة متزمتة وإنما هي بحوث ممتعة تحيط بالظروف السياسية والاجتماعية ،يبدي فيها آراءَه ويجتهد، وينظر إلى الأمر من جميع وجوهه،كما أنه يحتفظ لفتاويه بميزة اليسر في الأحكام وخفة التكليف، وعدم العسر والحرج والأخذ بسياسة الشارع في الرفق الذي يجلب الإنسان إلى الطاعة بصفة تلقائية: حيث كان يحمل السائل المسؤولية نفسه لأنه أدرى بدواخله ودوافعه وهذا في جميع فتاويه، هذا إلى جانب الترتيب والنظام والاستيعاب والتقليل من الإحالات على كتب الفقه وضرب بعضها ببعض كما هو عند غيره، لذلك نجده رحمه الله في تمثله المعنوي للقيم الفكرية يرى أن[22]:

الشريعة لها ظاهر هو للفقهاء، وباطن وهو للصوفية، وإنما يكمل الأمر بهما معا. ولهذا يقال: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق، ومن تصوف ولم يتفقه، فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، فمن أنكر هذا وجعله نجاسة أو جعل صاحبه داخلا في حزب الشياطين فقد أنكر الشريعة.

ومع ذلك، فان الفقيه اليوسي يتخذ موقفا أخلاقيا وسطا يجعله يفرق بين المدجلين المشعوذين وبين أولياء الله الصالحين، ويجعله بالتالي يتبرك بآثار هؤلاء بإيمان وحجية، وان في غير غلو. وحتى لا يقتدى به العوام فيزيدون على ذلك ويبالغون، فإنه يبين أن "التبرك بآثار الصالحين مع صحة العقيدة لا بأس به وله أصل في فعل الصحابة رضوان الله عليهم"[23]. وهكذا استطاع الرجل أن يجمع ما تفرق عند غيره، وان يصل إلى مراده، مبتعدا بذلك عن مظاهر الغموض والإبهام والالتباس والجمود والتقليد، جامعا بين الحقيقة والشريعة، داعيا إلى الجمع بين التفقه والتكلم والتصوف عالما عاملا. وفي رسالته إلى أهل بلد كارت خير شاهد ودليل ومما قال فيها[24]:

عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب.

والشخصية الجامعة بين الأصالة والتجديد عزيزة الوجود، ولا تكون إلا زبدة جيل أو مخاض عصر بأكمله، ولقد كان اليوسي من المصلحين المجددين والمجتهدين الذين تظهر أصالتهم واستقلاليتهم في الرأي في جل أبحاثهم وأثارهم. حيث ينحو منحى خاصا فيقبل من كلام القدماء ويرد، وربما أتى برأي ينافس به فحولهم ويخالفهم. ومعلوم أن الرأي المخالف إن كان من الدلائل الشرعية التفصيلية وكان صاحبه ممن توفرت فيه الشروط اللازمة فهو اجتهاد لا يغض من قدر الرجل حتى في حال الخطأ. فأحرى عند مجرد المخالفة، سواء تعلق الأمر بالاجتهاد المطلق والاجتهاد المذهب[25]، أو الاجتهاد الفتوى بشروطه المعروفة. ففي جوابه للسلطان إسماعيل في مسألة الأَمة التي واقعها وأراد أن يعرف الحكم إن أراد أن الانتقال إلى ابنتها لدليل جلي على مدى استقلال فكر اليوسي وشخصيته الفقهية وتحرره و استيعابه الذي يحيط بالمسألة وبجوانبها - بلا كبير روية ولا مراجعة المظان أحيانا لخلو اليد من الكتب-على خلاف جوابين عن نفس السؤال لعالمين جليلين من معاصريه، ليتضح الفرق بينه وبين غيره في الطريقة والمنهاج: أجاب الفقيه القاضي أبو مروان عبد المالك التجمعتي بقوله:

إن إصابة المشار إليه في السؤال للأَمة المأخوذة من أهلها على الوجه المنبه عليه، إصابة ملغاة في نشر الحرمة في أصولها وفصولها، فلا يترتب شئ من لوازم الوطء الشرعي. فيحل وطء ابنتها مثلا بالملك والنكاح، وعليه درج الإمام مالك في (الموطأ) وكفى به قدوة وحجة وما وقع في (المدونة) محمولا عند بعض العلماء على الكراهة،وعليه فالخطب في المسألة سهل.والله أعلم.

وأجاب القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن المجاصي فقال:

الجواب أعلاه صحيح، وما نقل عن الإمام في الموطأ قال الحافظ: عليه جل أصحابه. بل قد قال غير واحد: انم جميعهم عليه. قال سحنون: ولا اختلاف بينهم. وتشهير مقابلة لم يقف المحققون على بعد البحث عنه عليه. والاغترار بكلام *التهذيب* مدفوع بكلام عياض على الأصل. وبالجملة قول الإمام السابق هو المعول عليه ويؤيده من جهة النظر أن المعدوم شرعا كالمعدوم حساً حسبما تقرر في القواعد".

ثم أجاب الفقيه اليوسي بقوله:

ينبغي أن ينظر إلى حال السائل عند مواقعته الأمة المذكورة، فانه لا يخلو ساعتئذ من ثلاث حالات: الأولى: أن يطأها معتقدا لحريتها مقتحما لذلك بلا وجه ولا شبهة الزنا المحض الذي يترتب فيه الحد وينتفي الولد.الثانية: أن يطأها معتقدا للحلية متمسكا بوجه شرعي عنده بأن يرى لنفسه صحة الملكية على الأمة المذكورة بسبب يعتبره، إما أن يكون المال المأخوذ مثلا في الحقيقة خراجا وان سماه اسما أخر وكون ذلك من المصالح العامة المرسلة التي ينضبط بها أمر الناس أو من العقوبات بالمال لأجل ذلك، ويدين بمذهب من يرى شيئا من ذلك في المذهب أو خارجه، أو إنما المأخوذ غضبا أنما هو النقد والأمة أو نحو ذلك من التأويلات، ثم يرى أنها إذا حصلت بذلك الوجه وصارت في عدد المال كان له حق في المال فلتكن هي ذلك النصيب أو بعضا منه، ويكون في هذا كله قد نظر لنفسه في المسألة إن كانت له مشاركة أو قد أفتاه مفت يرضاه فقلده. الثالثة: أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلا منه بتلك الصورة، وظنا منه أنها من جملة المباح له.

فأما في الحالة الأولى: فالمسألة هي مسألة الموطأ المشار إليها في الأجوبة فوقه، لأنها إنما فرضت عند الإمام مالك وغيره في الزنا وهو وطء من لا ملك له على الاتفاق بلا شبهة ولا غلط ولا جهل للحكم ولا للعين، كما لا تخفى حقيقته. وما أجاب به السادة و فوقه أصلحهم الله وأبقى وجودهم للإسلام، صحيح يعمل به ولا مزيد عليه.

وأما في الحالة الثانية: فالحرمة تنتشر بين الموطوءة وأصولها ولا سبيل للوطء إلى ابنتها، لأنه يرى انه وطئ أمها بملك اليمين، وذلك ينشر الحرمة وكون تلك الشبهة لا يلتفت إليها في نفسها ولا تجوز الفتوى ولا العمل بمقتضاها في المذهب، لا يقدح في هذا لان المطلوب فيه مجرد الوجه المخرج عن الزنا الموجب للحد، دليلا كان أو شبهة، وقد حصل وهذا أر واضح لا نزاع فيه، حيث يقع الوطء كمسألتنا، وإنما التفصيل في غيره.

وأما في الحالة الثالثة، فلم يقبل منه ادعاء الجهل اعتبارا بالغالب أو بأن ذلك من الحرام الواضح الذي لا يقبل فيه الجهل مطلقا، فالحكم حكم الحالة الأولى ولا إشكال...والله المستعان

وحاصل جواب الفقيه اليوسي أن هناك أربع حالات تنتشر الحرمة بين الأمة وبين أقاربها في اثنتين منها ولا تنتشر في الأخريين، أما الحالتان اللتان تنتشر فيهما الحرمة فهما: أولا، أن يطأ السائل الأمة معتقدا للحلية متمسكا بوجه شرعي؛ ثانيا، أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه، ولكن جهلا منه بتلك الصورة وظنا منه أنها من جملة المباح له، فإن قبل منه ادعاء الجهل اعتبارا فالحرمة تنشر لان الوطء حينئذ شبهة.

أما الحالتان اللتان لا تنتشر فيهما الحرمة بين الأمة وأقاربها فهما: أولا، إذا وطئها السائل معتقدا لحريتها وهو الزنا المحض؛ ثانيا، أن يطأها معتقدا للحلية لا بوجه ولكن جهلا منه وظنا أنها من جملة المباح له، وفي هذه الحالة لا يقبل منه ادعاء الجهل اعتبارا بالغالب فالحكم أن الحرمة لا تنتشر أيضا.

وهو ينبه على الرجل الذي ظهر في سجلماسة، وشاع عنه انه وليّ وأنه صاحب الوقت، وخرج الناس لرؤيته، وكذلك أمير البلد، وتعذرت رؤيته فدخل قبة في المقابر"فأخرج كفه من طاق في القبة فجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون. ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب إلى ناحية الغرفة، وأنه سقط في بئر هنالك ومات. فظهر أنه رجل مصاب، وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك[26]. ومثله الرجل المدعى الصلاح بهسكورة، وهو يفعل الفاحشة وكذلك الرجل الذي كان يعد الناس بأن يبلغهم إلى مكة ويحج بهم في طرفة عين، ولكن بعض الأشراف اختبروه وطردوه بعد أن قبل رفع الصلاة عن أحدهم مقابل مبلغ من المال، ثم تبين بعد ذلك أنه يهودي[27].

وهكذا تتضح جليا شخصية اليوسي الصوفية الفقهية المتفردة وطريقته الاستنباطية من تفصيل وتفريع وما نتج عن ذلك من بيان شاق للأحكام، وتنزيل الأقوال في منازلها المعتبرة مما يزيل التعارض ويقرب شقة الخلاف ويساعد على التوفيق والجمع.[28] وأن يجمع ما تفرق عند غيره، وأن يصل إلى مراده، جامعا بين الحقيقة والشريعة، وبين المنقول والمعقول داعيا إلى الجمع بين التفقه والتكلم والتصوف عالما عاملا، يقول رحمه الله: "عليكم بالتعلم والسؤال عما لا تعلمون، ولا تكتفوا

بعقولكم وقلدوا الفقهاء في الأحكام الشرعية من الديانات والحلال والحرام، والمتكلمين من أهل السنة في العقائد الدينية، ولا تقلدوا في الآداب وصلاح القلب إلا أرباب القلوب"[29].

[]

2/ فقه الإصلاح والتغيير في الفكر اليوسي بين التمثل المعنوي والتمثل الواقعي: يمتلك الإمام أبي الحسن اليوسي شخصية إصلاحية قوية، جمعت في منهج تغييرها بين التمثل المعنوي والتمثل الواقعي، للقيم الفكرية والسلوكية التي آمن بها في حياته وبقي وفيا لها حتى مات عليها، فذاع صيته وجمع الناس حوله: الشئ الذي رفع من قدره وجعله يحظى باهتمام واعتراف من لدن السلطان إسماعيل. فرغم المدة الطويلة التي قضاها في الزاوية الدلائية، ورغم الأسباب الكثيرة التي كان من شأنها أن تدفعه إلى الخوض في غمار السياسة، بقي محجما عن الخوض في الصراع الدائر حوله، محافظا على مرونة كبيرة، مؤيدا للسلطان ومسالما معه. إلا أنه في نفس الوقت لم يكن يخشى مواجهته ولا يخاف في ذلك إلا الله ولم يكن غافلا عن الواجب الذي فرضه الله على كل عالم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدح بالحق والنصح لولي الأمر، ونذكر هنا بما نقل عن المولى إسماعيل في الاعتراف بمكانة الفقيه اليوسي العلمية والتقدير والاحترام الذي كان يوليه له والثناء عليه من بين أقرانه من أهل العلم، من أنه قال: علماء الوقت على أربعة أقسام : قسم لا يخاف إلا من الله ولا يخاف منا، وقسم يخاف من الله ومنا، وقسم يخاف منا ولا يخاف من الله، وقسم لا يخاف منا ولا من الله. ومثّل للقسم الأول بالإمام اليوسي رحمه الله. ويبدو أن اليوسي كان يشعر بصعوبة ارتباط العالم الحق بالسلطة الحاكمة، وعدم جدوى هذا الارتباط حتى حين تتاح بينهما علاقة طيبة، وهي صعوبة ناتجة عن الظروف والملابسات التي أصبحت تحيط بهذه السلطة، حائلة دون قيام العالم برسالته ونهوضه بمسؤوليته، بعد أن غيرت طبيعة الحكم عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين الذين كانوا أحرص الناس على سماع النصح والنقد، لاستقامتهم واعتبارهم الحكم لله والقيام به عبادة[30].

وبما أن الفتوى ابتلاء وامتحان لاسيما إذا كان العالم في عصرٍ ملوكه متعلقون بأحكام الشريعة متطلعون إلى رأي العلماء في كل صغيرة وكبيرة مثل عصر الفقيه اليوسي، فانه يبقى بعد هذا كله متواضعا، قابلا للمراجعة والمؤاخذة، ولا يفوته في مرة أن يذكر بأن ما جاء به هو ما حضره في الوقت"...بلا كبير روية..ولا مراجعة المظان، لخلو اليد في الوقت من الكتب، فمن طالع من السادات بعد، فأصاب علما آخر موافقا أو مخالفا فليضفه إلى ما سطر إفادة ونصحا، فان الدين النصيحة، المومن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[31] ففي جوابه للسلطان إسماعيل في" نازلة العرائش" وهو يناقش احتمالات تأويل التأمين، والآي والاحايث الواردة في ذلك، مناقشة حية شيقة يضعها لبنة لبنة لبناء تحليله المحكم، ثم يرد بأخلاق العلماء الكبار على ممن أفتوا في النازلة ويفهم من صراحة اليوسي وصدعه بالحق أن نقض الأمان كان سببه الطمع في أموال النصارى: "ونسأل الله أن يختار لمولانا أي الجانبين أعظم، إما المال وإما شرف الذكر." ثم يدعو السلطان إسماعيل لإعلان الحقيقة لتبرئة الشريعة المحمدية، ويظهر اليوسي هنا ميالا للاعتقاد أن الأمان أعطي فعلا للنصارى، وأنه لا يجوز الرجوع فيه أبدا مهما كانت الظروف حفاظا على الروح السمحة للشريعة المحمدية: "فلا يزالوا يرهبونه، ويخضعون له ويثقون بعهده ومواثيقه، وفي ذلك من الخيرات والمعالم ما لا يخفى"[32].

وهكذا خلف الفقيه اليوسي رحمه الله، إرثا نفيسا وتراثا فقهيا إصلاحيا من النوازل والفتاوى والأجوبة.[33] وقد كان صلاحه للفتوى من الأسباب التي جعلت السلطان المولى إسماعيل يلومه على تفضيله سكنى البادية: جاء في جواب الإمام اليوسي على كتاب من السلطان: "وقول الكتاب : وهل يستفتونك وأنت في البادية؟ فأقول: أما أهل البادية فلا يطلبون غيري وأما أهل الحاضرة فعندهم من يكفيهم ومن احتاج إلي فليأتني"[34] والمولى إسماعيل نفسه لم يكن مستغنيا عن فتاويه، بالرغم من تواجد علماء كبار من معاصريه بالساحة العلمية بفاس، بل إنه كان يلح عليه حتى إن اليوسي لم يخف ضيقه بهذا الإلحاح فقال في إحدى فتاويه مخاطبا السلطان: وقد أرهقتنا مولانا بالفتوى، ولم تكن من شأننا ولا كنا أهلا لها في أدنى شئ فكيف في هذا الجناب الأعظم[35].

إن الإمام اليوسي رحمه الله لم يكن منعزلا عن هموم مجتمعه وقضاياه بل كان متغلغلا ومشاركا له مصلحا ومصححا وموجها لعوائده وتقاليده محافظا بأسلوب حكيم وخلق كريم، على أصالته ومدركاته الجماعية وأصوله الحضارية التي نشا وتربى عليها. ففي رسالته *جواب الكتاب*، وهو يعدد أسباب استثقاله لسكنى مدينة فاس، فإنه يذكر منها[36]:

فساد طبع العيال والأولاد والأصحاب ونخشى ذلك نحن أيضا في أنفسنا من جهات: إحداها تعلم الشهوات والاتساع فيها، وان كنا في البادية لا نعرفها، ووجدنا آباءنا يعيشون بما وجدوا قانعين به، يلبسون الثوب الخشن ويأكلون البرتارة والشعير أخرى والدخن أخرى والتمر أخرى والبلوط وحب العرعار أخرى، حامدين شاكرين، ما رأوا قط لباب البر ولا إبزارا ولا عطرا ولا كتانا ولا ملفا..ثانيها الوقاحة في ذلك وقلة الحياء، فقد كنا في البادية تستحي المرأة أن تطلب اللحم فكيف بما وراءه، ولكن تتشوف إلى المواسم أو ضيف نزل فيذبح له أو يشترى له أو إنفاق يأتي به الله من غير استدعاء، فوجدنا المرأة في الحاضرة تراعى الباب وتقول للرجل: انفق وارجع إلى السوق، ولا تسمع إلا سوق اللحم، سوق الحوت، سوق الزعفران، وهكذا. ثالثها أن يتعلم الصبيان اللؤم والبخل وقلة السماحة كما هو دأب أهل الحاضرة وما فسدت طبائع العرب إلا في الحواضر.

ومن العادات القبيحة التي حاربها رحمه الله، عادة التطير من السواد كعدم زجر الكلب الأسود، والتشاؤم من الغربان، وعدم ارتداء الثوب الأسود، وعدم ركوب الفرس الأدهم مستشهدا بحديث سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام الذي قال فيه عليه السلام"لا عدوى ولا طيرة." وفي ذلك يقول اليوسي: "فالحق عندنا في تأويله أنه إثبات لانفراد المولى جل بكل التأثير وألا تأثير لشئ مما يتوهم العرب أنه مؤثر لا في باب العدوى ولا في باب الطيرة لأنه نفي لما جرت العادة بوجوده"[37]. وجواب الفقيه اليوسي ينم على طريقة تبسيطه للقضايا التي يلقنها للعامة وخاصة في مجال الفقه والعقيدة والسلوك، ومنهجه في التدريج مع مراعاة شعور الملقن له بإغرائه وعدم تنفيره حيث يرى أنه[38]:

[إن ألزمنا هذا عزل النفس عن الحظوظ وتجريد القلب للحقيقة، أوشك أن تحيص نفسه حيصة وهي لم تزل قوية، فيعود من حيث جاء. ولعلك تفهم بهذا سر امتلاك كتاب الله تعالى بذكر الجنة وما فيها من الحور والقصور والغلمان والأنهار، فان الدعاء بمثل هذا هو مشرب النفس،وهو حال عامة الخلق، والله تعالى أعلم بمصالح عباده. ثم إنه إذا ارتفع المريد عن هذه الحالة واشرأب إلى ما وصل إليه العارفون وانتهض لسلوك هذا المسلك والاشتغال بعمله من العزلة والصمت والجوع والسهر، فلو توهمنا فيه التشوف إلى حصول الوصول أو الولاية أو المعرفة أو الفتح أو القرب أو نحو ذلك، فلا ينبغي أيضا أن نعاجله بالتحقيق ونطالبه بالعبودية والفناء عن الاغيار من أول وهلة، بل نرخى له العنان حتى يتمكن في الرياضة وتنقاد نفسه ويقشعر جلده وقلبه لذكر الله، فعند ذلك يسهل إشالته مع السابقة والتوفيق إما على لسان شيخ ناصح أو أخ صالح أو بعض من ينصره الله به.]

ولعلنا بعد هذا لا نستغرب من تجاوب الجماهير معه وإقبالها عليه بشكل كان يزعج السلطان باستمرار.فقد :"كان حيثما قرأ يطبق الناس عليه ويغص مجلسه بالخلائق مع ميلان العامة إليه، فكان لأجل ذلك ينقله السلطان من موضع إلى آخر."[39]

وكان إحساس اليوسي بوجوب محاربة الشوائب والخرافات يحثه على ربط هذا الوجوب بمسؤلية العالم في المجتمع، ويجعله يرى أنه "إذا ظهرت البدعة وسكت العالم فعليه لعنة الله"[40]. فمثل هذه المواقف الواضحة وغيرها، كانت تفرض على اليوسي مسؤولية محاربة تلك البدع والضلالات، والتوعية بها على صعيد العامة التي كانت يومئذ تعيش اضطرابا فكريا وعقديا نتيجة انتشار الشعوذة والتدجيل المختفين وراء ستار التصوف المزيف، وإن كان يرى أنه "مازال التمسك بالسنة المحمدية بمغربنا والحمد لله، وظهور الحق والعدل وتغيير المنكر وإخفائه لمن ابتلي بشئ من ذلك بخلاف هذه البلاد"[41].

وفي عرضه لأحوال الجهال المضللين لا يكتفي بالتلميح وللإشارة، بل يطرحها بوضوح من خلال أنماط تدجيلية واقعية تعيش وسط المجتمع، مستغلة بساطة بعض أفراده[42]:

فما شئت أن تلقي جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلا عن يعمل به، فضلا عن أن يخلص إلى الباطن، فضلا عن أن يكون صاحب حال، فضلا عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته يصول ويقول وينابذ المعقول والمنقول، وأكثر ذلك في أبناء الفقراء يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه، ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة، بل لمجرد حطام الدنيا، فيقول: خدام أبي وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان، ولا يقبل أن يحبوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره. وإذا رأى من يخرج يطلب دينه أو من يدله على اله تعالى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع له عليه شئ من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه، فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلال، ثم يخترق لهم من الخرافات والأمور المعتادات ما يدعيه سيرة ودينا يستهديهم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم، والشفاعة يوم الحشر، ويقبض على لحمة ذراعه فيقول للجاهل مثله: أنت من هذه اللحمة. فيكتفي جهال العوام بذلك،

ويبقون في خدمته ولدا عن والد، قائلين : نحن خدام الدار الفلانية وفي زربية فلان لا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا. وهذا هو الضلال المبين، وهؤلاء قطاع العباد عن اله تعالى وعن دينه.

وإذا كان اليوسي يراعي شعور العوام ومستواهم العقدي والعملي، فيبدو متساهلا بعض الشئ، فانه حين يتعامل مع أقرانه من العلماء لايبدي أي تحفظ أو تخوف، بل يجهر بالرأي بأخلاق راقية وان خالفهم فيه، ويكفي أن نشير من ذلك إلى موقفه في قضية العلم النبوي وما كان له فيها مع عبد المالك التجموعتي من مناظرة ومحاججة بالبرهان والدليل في قوة ومتانة رأي.

[]

- **خاتمة** إن فقه التدين والإصلاح لدى الإمام اليوسي كان فقها خلاقا يجمع بين التمثل المعنوي للقيم الفكرية والتنزيل الواقعي للقيم السلوكية كما أشار هو لذلك في *الفهرست*[43] بحيث ينفذ إلى عمق المادة، يستخلص اللباب ويغوص إلى الجوهر، مما جعله تحديا لثقافة العصر التي تعتمد كليا على الرواية والنقل بالدرجة الأولى. فاليوسي لم تغلب عليه كما سبق الإشارة إلى ذلك- ثقافة الحفظ والاجترار والنقول، ولكنه رجل الرأي والتحليل والمقارنات والاستنتاجات، الرجل الذي تمكن من تجاوز المصادر والأمهات والوصول إلى المبادئ والكليات، وبهذا كان اليوسي يمثل تيار التجديد بالقياس إلى مدرسة فاس التقليدية[44].

والثابت أن علم اليوسي وذيوع صيته، قد أكسبه علاقات مستحكمة من الطلبة لا تنتهي بحلقات الدروس، بل تتجاوزها إلى الصحبة والاتصال المستمر مشافهة وكتابة مما مكّن لمؤلفاته وأفكاره الذيوع والانتشار خصوصا ما جاء في رسائله في الشؤون العامة، وفي التصوف والفقه والعقيدة: فأخباره مع السلطان إسماعيل يعرفها الجميع في عصره، ورسائله إليه يتناقلها الطلبة والمثقفون. وقد واجه رحمه الله واقعه بالتوجيه والإصلاح والتصحيح والنقد، وكأنه يُعنِّف هؤلاء الذين يحيط بهم الفساد الأخلاقي من كل جانب فلا يضايقهم ولا يتخذون منه موقفا معينا، ولا يريدون أن يعيشوا لقضية من القضايا في حياتهم. فهؤلاء الذين لا ينتمون إلى قضايا مجتمعهم يرى فيهم اليوسي فقدانا للحس كالمجانين، أو ضعفه كالأطفال[45]:

> وهؤلاء يسلم باطنهم من كل صراع. أما الذين ينتصرون لقضية معينة، فإنهم مقضي عليهم بعذاب الباطن، ولا ينس اليوسي رحمه الله هؤلاء المنتمين إلى شئ غير صحيح، ولا يقوم على أساس، ويتوهمون فيه الملائمة، ويكرهون الملائم ويتوهمون أنه منافر، بتدخل عامل من العوامل وهؤلاء هم المنتمون المزيفون.

وكل مجتمع يعيش مرحلة تحول سياسي واجتماعي مثل عصر الفقيه اليوسي، فانه سيعرف هذه النماذج الثلاثة: الذين يعملون من أجل مثلهم وأخلاقهم وقيمهم فيتعذبون، وهؤلاء الراضون بالسلامة، وهؤلاء المنخرطون في صراع منحرف عن طبيعة الأمور. وهذه الحقيقة، كما يلحظ الأستاذ عباس الجيراري، هي التي جعلته[46]:

> يتأثر بعصره ويؤثر فيه كذلك، من حيث أنه يكشف عن بعض المخبآت فيه، ويؤشر على جملة من تناقضاته، ويرهص بصيغ جديدة لإعادة تشكيل البنية الأخلاقية، وبعض البنيات المهترئة فيه، وهو لا يفكر رحمه الله في هذا التكوين الجديد نسجا على منوال أو نموذج خياليين، ولكن تحفزا من الواقع ومعاناته فيه.

لقد أتيح للفقيه اليوسي رحمه الله، ليس فقط أن يتتبع معالم مدركات عصره الجماعية الموزعة، بل أن يلتقطها ويهضمها ويصهرها، في محاولة توحيدية تصحيحية تجديدية إصلاحية متفردة لم يكن أحد من معاصريه قادرا عليها، إن لم نقل قادرا على تصورها والتفكير فيها، فضلا عن تجميع ما تقتضيه من عناصر متكاملة، وهذه خصيصة تكفي لجعل فكر الرجل وشخصه يتسمان ببعد أخلاقي تجديدي ريادي خاص، هو في النهاية أحد الملامح البارزة في حياته. و ختاما لهذه الورقة البحثية أن تُسهم في الانطلاق الفعلي لدراسة وتحقيق تراث الإمام اليوسي والجانب الفقهي منه خاصةً؛ وكذلك في إبراز المشروع الإصلاحي التغييري الكبير للإمام اليوسي - عبر دراسات علمية أكاديمية- تبيّن المنهج الأخلاقي المتكامل له في تجديد الفكر الديني بالمغرب الحديث. ناهيك بإبراز التراث الفكري للعلامة اليوسي وآراءه الإصلاحية واجتهاداته الدينية التي ضمنها في مؤلفاته وشروحاته ورسائله وفتاويه ونوازله الفقهية المعروفة، وإزالة غبار النسيان والإهمال عنها قبل أن يصيبها التلف، ودراسة منهجه من خلالها سبراً لمعالمه ووقوفاً على حقائقه، وإستكناهً لجوهره وبعده الأخلاقي وأصالته وخصوصياته، وذلك

للإستفادة من تراثه في تسديد مسار الأمة وتجديد دينها وتدينها، وإغناء صرحها التشريعي والقضائي والدفع بالورش الإصلاحي التغييري الحقيقي في المغرب وسائر ديار العربية والإسلام.

وإذ يلاحظ غياب دراسة استقرائية تستخرج منظومة اليوسي الفكرية الدينية، ومنهجه في الإصلاح وتجديد الفكر الديني بالمغرب، فالحاجة ملِحة للقيام بها لتتكامل الأبحاث و الدراسات والندوات والملتقيات والمحاضرات والمقالات التي تناولت شخصية العلامة اليوسي رحمه الله تناولاً تجزيئياً وفي مجالات محصورة ومخصوصة من فكره، وذلك لإبراز مختلف جوانب شخصيته الإصلاحية الأخلاقية لم تلق الدرس اللازم من لدن الباحثين؛ ومن ثم إظهار القواعد العلمية والضوابط المنهجية العامة، التي جاءت مبثوثة بين ثنايا كتبه، والأساليب التي يتبعها في تأييد وجهة نظره فيها، وطريقته في البسط والبرهنة، والرد والقبول، والجمع بين المنقول والمعقول، وذلك بإعتبارها طريقة تراعي آداب وأخلاق الخطاب ومستوى المخاطب وتتبع الحق وتتحمل أعباء إتباعه.

إن الباحث الحق والدارس الذي يقف على التراث الفكري الذي تركه الإمام اليوسي رحمه الله من تآليف وشروح ومصنفات ونوازل واجتهادات يجد نفسه أمام مصلح مجدد وعالم فذ ذو منهج رصين له آراء وترجيحات بديعة، استطاع إلى حد بعيد إحياء القلوب، وتحريك العقول باختراق الحواجز النفسية التاريخية لعقلية التقليد والجمود، وتقديم نموذج أخلاقي إصلاحي تجديدي اجتهادي متميز، سواء في جانب المنهج التأصيلي أو الإنتاج الفكري والحضاري لهذا المنهج. فتتشوق نفسه للغوص في هذه المدرسة الإصلاحية التجديدية المغربية الأصيلة واستكناه معالمها.

إن الإمام اليوسي رحمه الله المصلح المجدد، الفقيه الأديب الأصولي المحرر المحقق الشهير، هو نموذج للمفكر المغربي المصلح الذي ارتبطت حياته بمدركاته وأفكاره الإصلاحية التغييرية، ولم يعرف ما يعانيه الفكر الإسلامي اليوم من انفصام كثيراً ما يجعل حياة المفكر وما يؤمن به من أفكار على طرفي نقيض.. وقد استطاع اليوسي بهذا أن يحرك مدركات الفكر المغربي ويصلحها بطاقته المتجددة، ويجعله يساير من خلالها المتغيرات والقضايا المستجدة، مراجعا المظان، ومستحضرا الفنون المختلفة من معقول ومنقول. فاستحق ثناء اليفراني ووصفه إيّاه بأنه "الشيخ الإمام علم الإعلام شيخ الإسلام آخر علماء المغرب على الإطلاق، ومن وقع على علمه وصلاحه الإجماع والاتفاق"[47].

[[]]

[1] طالب باحث في سلك الدكتوراة، تكوين التربية والثقافة والفن، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس بالرباط.

[2] سورة الرحمن (55)، آيات 2 - 4.

[3]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي (الدار البيضاء: دار الثقافة، ،ط1، 1981م) 1/ص101.

[4]- عبد الحي الكتاني: *فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات*، تحقيق إحسان عباس (ب.م دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م) 2/ص464.

[5]- محمد ليفراني: *صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر*، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي (الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي، ب.ط، 2004م) ص208.

[6]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي (ب.م: منشورات دار المغرب، ب.ط، 1976م) ص30.

[7]- الحسن اليوسي: *فهرسة اليوسي*، تحقيق زكريا الخثيري (بيروت: دار الكتب العلمية، ب.ط، 2009م) صص 129 - 138.

[8]- المرجع نفسه، ص 43.

9- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي (الدار البيضاء: دار الثقافة ،ط1، 1981م) 2/ص406.

10- محمد القادري. *نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني*، طبعة حجرية، 2/ ص142.

[11]- الحسن اليوسي: رسائل أبي علي اليوسي، *م.س*، 2/ص342.

[12]- للتوسع في ذلك، ينظر الرسالة الثامنة والعشرون في إبطال مسألة التسلسل، ضمن رسائل الحسن اليوسي، 2/ من 496 إلى ص481.

[13]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، *م.س*، ص36.

[14]- المرجع نفسه، ص418.

[15]- الحسن اليوسي: *القانون في أحكام العلم وأحكام المعلم وأحكام المتعلم*، تحقيق حميد حماني (الرباط: مطبعة شالة، ط1، 1998م) صص5-6.

[16]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص122.

[17]- المرجع نفسه، ص75.

[18]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ص537.

[19]- علال الفاسي: *دفاع عن الشريعة* (القاهرة: دار الكتاب المصري، ط 1، 2011م) ص128.

[20]- عبد الكبير المدغري: *الفقيه أبو علي اليوسي نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية* (المحمدية: مطبعة فضالة، ط1، 1989)ص184.

[21]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ص573.

[22]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ص83.

[23]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص37.

[24]- الحسن اليوسي: رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ص406

[25]- عبد الكبير المدغري: *م.س*.

[26]- المرجع نفسه، ص38-39.

[27]- المرجع نفسه، ص11.

[28]- المرجع نفسه، ص184.

29- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ص406.

[30]- عباس الجراري: *عبقرية اليوسي* (الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1981م/1401هـ) ص89.

[31]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ ص211.

[32]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ص257-270.

[33]- من أشهر فتاويه: فتواه في العكاكزة/ فتواه في نصارى العرائش/ فتاوى في وصل الشعر، بالإضافة إلى أجوبة وفتاوى أخرى متفرقة في أثاره.

[34]- الرسالة مخطوطة ن الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 849

[35]- عبد الرحمن زيدان: *المنزع اللطيف في مفاخر م إسماعيل ابن الشريف*، تحقيق عبد الهادي التازي (الدار البيضاء: مطبعة إديال، ، ط1، 1993م) ص89.

[36]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س،1/ ص 130.

[37]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص82.

[38]- المرجع نفسه.

[39]- عباس الجراري، م.س، ص70.

[40]- *ن.م.س*، ص75.

[41]الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 2/ص408.

[42]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، صص107- 108.

[43] أحمد الهشتوكي: *هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام*، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط، رقم 190ق، ص79.

[44]- الحسن اليوسي: *رسائل أبي علي اليوسي*، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، م.س، 1/ص118.

[45]- الحسن اليوسي: *المحاضرات في اللغة والأدب*، تحقيق محمد حجي، م.س، ص121.

[46]- عباس الجراري، م.س، ص100.

[47]- محمد الصغير اليفرني: *نزهة الحادي في أخبار الحادي عشر*، تصحيح هوداس، منشورات بردى الرباط، ص278.